

عائشة الباعونية

شاعرة الشام.. وفاضلة الزمان

الدكتور محمد محمود كالو

دار المجد للنشر

دار المجد للنشر

الطبعة الأولى

1442هـ-2020م

نزِّه الطرفَ في دمشق ففيها　　كل ما تشتهي وما تختارُ
هي في الأرضِ جنَّةٌ فتأمَّل　　كيفَ تجري مِن تحتها الأنهارُ

(عائشة الباعونية)

عائشة الباعونية

شاعرة الشام .. وفاضلة الزمان

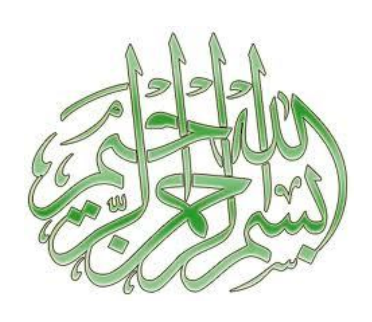
بحث مقدم إلى الملتقى الدولي الثاني للأديبات الإسلاميات في القاهرة تحت عنوان:

(إبداعات الأديبة الإسلامية في الفنون الأدبية)

(الأربعاء - الجمعة: 14- 16 شعبان 1433هـ، الموافق 4- 6 تموز/ يوليه 2012م).

إعداد

د. محمد محمود كالو



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد الصادق الوعد الأمين، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فلقد كثرت الدراسات والأبحاث الأدبية الحديثة حول الأدب العربي، ووجهت الجامعات والمعاهد طلابها وأبناءها للاهتمام بالتراث الأدبي، ودراسته، والكشف عن أعلامه ورواده، ومع كثرة هذه الدراسات والأبحاث وتشعبها، فإن تراثنا الأدبي ما زال بحاجة ماسة إلى من ينفض عنها غبار السنين، لأن فيها جوانب مشرقة ومضيئة لم يتطرق إليها الباحثون المحدثون، ولا يمكن أن نلم بالصورة الصحيحة لتراث الأدب العربي إلا إذا تضافرت جهود العلماء والباحثين في إحياء المخطوطات من التراث الأدبي، ونشرها للناس بصورة محققة واضحة مشرقة، لأن كثيراً منها ما زال حبيس المكتبات في الشرق والغرب، يلفه النسيان وغبار الزمان، وفي حاجة ضرورية إلى أيدٍ أمينة وعقول نيرة، ليرى النور من بعد ظلام، وليسعد بالحياة بعد موت.

ومن رواد الأدب وأعلام الشعر في عصرها؛ مسلمة من أعلام النساء اللواتي جسدن دور المرأة المسلمة في المشاركة الفعالة في مجال الأدب والشعر والإفتاء، ودحضن كل الأقاويل التي بهّتت صورها، وحجمت دورها، وهمشتها لتصبح قطعة أثاث جميلة في إحدى أركان المترل، لقد كانت منارة النساء في عصرها، ومثال يحتذى في كل العصور، الأديبة والفقيهة والشاعرة التي وصفها أكابر العلماء بأنها فاضلة الزمان، وربة الأدب، وصاحبة الشرف والنسب.

لم يكن في زمانها من يضارعها من حرائر النساء أدباً وخلقاً وعلماً وفصاحة وحلماً، وفهماً للمعاني الدقيقة العميقة المستنبطة من آيات القرآن الكريم، وقد كان لها باع طويل في فقه المذاهب الأربعة، وكذا في السيرة النبوية الشريفة.

لقد قَدمتْ من الدراسات والأبحاث الأدبية والعلمية والفقهية والتشريعية ما يجعلها نبراساً يضيء طريق المرأة المسلمة في كل زمان ومكان.

إنها الأديبة الأريبة اللبيبة، والعالمة العاملة العاقلة، عائشة بنت يوسف الشهيرة بـــ (عائشة الباعونية) والتي أكرمها الغرب وغفل عنها العرب، كرمها الغرب لأنها حظيت بمكانة رفيعة في تاريخ المرأة المسلمة في العصر المملوكي، فكانت مع أربعة وستين شخصية عالمية أحدثت فروقاً حضارية في المجتمعات، ومن الجدير بالذكر أنها كانت الشخصية الأنثوية الوحيدة في القائمة المكرمة العالمية، فوضع اسمها بجوار الخليل بن أحمد الفراهيدي وابن خلدون من الشخصيات العربية، و"بيرتولت بريخت" الألماني؛ وهو أحد أكثر الشخصيات تأثيراً في المسرح العالمي، وفرويد مؤسس علم التحليل النفسي، وغيرهم من الشخصيات العالمية.

كما أدرج اسمها في موسوعة الشعر العربي في المجمع الثقافي في أبو ظبي، وأثبت لها اثنتي عشرة قصيدة، تضم 321 بيتاً.

شاعرة الشام هذه لم تحظ بعناية الدراسين إلا نادراً، تقرأ شعرها فلا تملك إلا أن تعجب بقوة ألفاظها وجزالة كلماتها، ورصانة تعبيرها.

لقد قرأتُ لها مدفوعاً ببراعة أسلوبها، ومعجباً بروحها الشعرية العالية، وشرعت أبحث في المكتبات عن دراسات وأبحاث حول هذه الشاعرة، فعثرت على دراسة عنها لمحمد علي الصويركي في كتاب له بعنوان «عائشة الباعونية.. فاضلة الزمان»، وكتاب آخر لحسن محمد الربابعة، بعنوان: «عائشة الباعونية شاعرة» وبعض النتف الدراسية المبثوثة في بطون الصحف والمجلات والشبكة العنكبوتية، فأخذت أقرأ عنها ملياً، وبعد أن تكونت لدي فكرة واضحة عن الشاعرة الفاضلة، شرعت في الكتابة عن حياتها ونشأتها ورحلاتها وأسلوبها الشعري، حيث استخلصت خصائص شعرها وما تميزت به في حياتها، وما قاسته في رحلاتها، فشِعرها صورة عن نفسها، وسجل عن حياتها، واعترضتني بعض المشاق في رسم الصورة التي أريدها عن حياة الشاعرة وشِعرها، وذلك لقلة المراجع وندرتها، فما زال كثيراً من مؤلفاتها مخطوطاً لم ير النور، ومن هنا أدركت السبب في عدم إقبال الدارسين على دراسة شعرها.

وما دراستي هذه سوى محاولة، أرجوا أن يكتب لها النجاح، وما زلت أعتقد أن الشاعرة الباعونية بحاجة إلى مزيد من البحث والدرس والفحص، سواء عن حياتها أو عن شعرها الغزير واللطيف، وقد قسمت البحث بعد هذه **المقدمة** إلى مبحثين على الشكل التالي:

المبحث الأول: حياة الشاعرة الباعونية ونشأتها.

المبحث الثاني: معطيات شعرها، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: خصائص شعرها ومميزاته.

المطلب الثاني: تحليل ملامح من شعرها.

وخاتمة تشمل النتائج.

والله تعالى أسأل أن يجعل هذا الجهد خالصاً لوجهه الكريم إنه سميع مجيب.

العين/ دولة الإمارات العربية المتحدة   د. محمد محمود كالو

يوم السبت:2012/5/5م

المبحث الأول

حياة الشاعرة عائشة الباعونية ونشأتها

عائشة [1] بنت يوسف بن أحمد بن ناصرالدين، الشيخ الأريبة، العالمة، العاملة أم عبد الوهاب الصوفية، الدمشقية بنت الباعوني، ونسبتها إلى (باعون) [2] من عجلون في القطر الأردني الشقيق، تعود إلى جدها الخامس أوالسادس، المولودة على الأرجح في حي الصالحية بدمشق سنة 864هـ، وفي يوم الاثنين سادس عشر من ذي القعدة 923 هـ توفيت الشيخة الصالحة المصنفة، صاحبة النظم الفائق أم عبد الوهاب بنت الباعوني، ودفنت بأعلى الروضة[3] في دمشق رحمها الله تعالى.

نشأتها:

ونشأت عائشة في دمشق، وتعلمت بها على أشهر علماء دمشق ومشايخها، وقد حدثت عن نفسها فقالت:

"كان مما أنعم به عليّ، أنني بحمده لم أزل أتقلت في أطوار الإيجاد، في رفاهية لطائف البر الجواد، إلى أن خرجت إلى هذا العالم المشحون بمظاهر تجلياته، الطافح بعجائب قدرته، وبدائع آياته، المشوب موارده بالأقدار والأكدار، الموضوع بكمال القدرة والحكمة للابتلاء والاختبار، دار ممرّ، لادار بقاء لها إلى دار القرار، فرباني اللطف الرباني،

---

1 ــ انظر ترجمتها عند كل من: محمد بن علي بن طولون الصالحي: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى 1418 هـ 1998م : 375، وعبد الحي بن أحمد المعروف بابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر ومحمود الرناؤوط، دار ابن كثير، الطبعة الأولى 1414 هـ 1993م: 10/ 158، وعمر رضا كحالة، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت (د.ت):3/ 196، وزينب العاملي، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، دار المعرفة، بيروت،1312هـ: 239، وخير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة : الخامسة عشرة 2002م: 3/641.

2 ــ قال المقريزي: وباعون على اسم راهبة اسمها باعونة كانت تقيم في دير، فلما أزيل الدير وعُملت القرية مكانه عُرفت به" اهـ أحمد بن علي بن عبد القادر العبيد المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1418هـ 1997م. ، ج4 ق1/277.

3 ــ ابن طولون الصالحي: مفاكهة الخلان، مصدر سابق: 375.

في مشهد النعمة والسلامة، وغذاني بلبان مدد التوفيق لسلوك سبيل الاستقامة، في بلوغ درجة التمييز، أهَّلني الحق لقراءة كتابة العزيز، ومن علي بحفظه على تمام التمام، ولي من العمر ثمانية أعوام، ثم لم أزل في كنف ملاطفات اللطيف، حتى بلغت درجة التكليف .. " [4].

شيوخها:

لقد حضرت الفقه والنحو والعروض على جملة من مشايخ عصرها مثل جمال الحق والدين إسماعيل الحوراني والعلامة محيي الدين الأموري، وقد أخذ عنها جملة من العلماء والأعلام، وقد انتفع بها خلق كثير من الطالبين [5].

وتنسكت على يد السيد الجليل إسماعيل الخوارزمي، ثم على خليفة المحيوي يحيى الأرموي [6].

يقول حسن ربابعة:" درجت في بيت علم وفقه وأدب وقضاء ووجاهة أفادت من بعض حلقاته وهي لم تشبّ عن الطوق بعد، وتنشّقت عبَق العلم في خدرها ، وربما كان بعض أفراد أسرتها أساتذتها الأوائل ، جرياً على سنة التدريس الباعوني ، فجدّها احمد تتلمذ على أخيه إسماعيل الصوفي في صفد، وأخواها محمد وأحمد تتلمذا لعمهما البرهان الباعوني ابراهيم ، حفظت القرآن الكريم ولها من العمر ثماني سنين ، وقالت : أهّلني الحقُّ لقراءة كتابه العزيز ومنّ عليّ بحفظه على التمام ولي من العمر ثمانية أعوام ، ثم تنسّكتُ على يد إسماعيل الخوارزمي ثم على يد خليفته يحيى الأرموي"[7].

زواجها:

تزوجت من ابن نقيب الأشراف في دمشق (الشريف أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن علي بن إبراهيم الذي ينتهي نسبه بالحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما) نحو عام (896هــ/1490م)، ورزقت منه بمولود ذكر اسمه (عبد الوهاب) عام (897هــ/1491م)، وبمولودة أنثى اسمها (بركة (عام (899هــ/1493م)، وقد توفيت (بركة) وهي في الثالثة من عمرها .

رحلاتها:

رحلت عائشة الباعونية من أجل طلب العلم فزارت العديد من البلدان منها **مصر**، حيث حملت إلى الأزهر بالقاهرة سنة 919 هـــ فأصيبت في الطريق بشيء كان معها من مؤلفاتها ومنظوماتها، ولما دخلت إلى القاهرة

---

4 ــ ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب: 10/ 158، وعمر كحالة، أعلام النساء:3/ 196.

5 ــ زينب العاملي، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور: 239.

6 ــ ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب: 10/ 158.

7 ــ حسن ربابعة، عائشة الباعونية شاعرة، دار الهلال، إربد،1997م:45.

ندبت لقضاء مآرب لها تتعلق بولدها وكان في صحبتها المقر أبو الثنا محمود بن آجا الحلبي صاحب دواوين الإنشاء بالديار المصرية، فأكرمها وولدها، وأنزلها في حريمه، وكانت قد مدحته بقصيدة أولها [8]:

روى البحر أصباب العطا عن نداكم ونشر الصبا عن مستطاب ثناكم

فعرضها على شيخ الأدباء السيد الشريف عبد الرحيم العباسي القاهري، فأعجب بها، فبعث إليها بقصيدة من بديع نظمه، فأجابت عنها بقصيدة مطلعها:

وافت تترجم عن حبر هو البحر بديعة زانها مع حسنها الخفر

واقتطفت حظاً وافراً من العلوم، حتى أجيزت بالإفتاء والتدريس، وبرعت في العلوم الدينية، ولقبت بفاضلة الزمان، وحليفة الأدب في كل مكان.

ثم عادت إلى **دمشق 921هـ**، وعكفت على التدريس والتأليف زمناً.

ثم سافرت إلى **مكة والمدينة** لأداء مناسك الحج والعمرة، وزيارة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وأنشأت بعض قصائدها هناك عندما تأثرت بقدسية المشاعر المقدسة.

وزارت **حلب** سنة 922 هـ والسلطان الغوري بها، لمصلحة لها كانت عنده، فاجتمع بها من وراء حجاب البحر السيوفي، وتلميذه الشمس السفيري وغيرهما[9] وهذا يدل على أنها كانت على صلة برجال الحكم في هذه الفترة، وربما كان لها دور في الحياة السياسية آنذاك.

مكانتها العلمية:

وصفتها كتب التاريخ بأنها امرأة فاضلة أديبة لبيبة عاقلة، ظهرت علامات الذكاء والنبوغ عليها في طفولتها، فحفظت القرآن الكريم وعمرها لا يتجاوز الثماني سنوات، على وجهها من الجمال لمحة جملها الأدب، وحلتها بلاغة العرب، فجعلتها بغية ومنية الراغبين، والذي أجمع عليه العارفون أن عائشة هذه بين المولدين تزيد عن الخنساء بين الجاهلين، وقد وصفها عبد الغني النابلسي بأنها فاضلة الزمان، وحليفة الأدب في كل مكان، ووصفها غيره من العلماء والأعلام بأنها ربة الفضل والأدب، وصاحبة الشرف والنسب [10].

وكانت عالمة في النحو والعروض والتصوف، نهلت العلم والأدب على يد مشايخ عصرها في مدارس دمشق والقاهرة، ومن مطالعاتها الخاصة، إذ نشأت في بيت علم، ودين، وأدب، وأجيزت في الإفتاء والتدريس، وألفت عدة مؤلفات في الشعر والنثر، وكان لها باع طويل في فقه المذاهب الأربعة، وفي السيرة النبوية، وقد برز ذلك عند

---

8 ــ ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب: 10/ 158، وعمر رضا كحالة، أعلام النساء:3/ 196.

9 ــ ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب: 10/ 159.

10 ــ زينب العاملي، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور: 239.

نظمها النبويات، ولها معرفة واسعة بالتصوف عندما أدرجت آراء الكثير من المتصوفة في أشعارها، واحتجت بآراء وأشعار ما لا يقل عن خمسين شاعراً وناقداً في شرح بديعيتها، ونظمت الشعر في فنون شعرية كثيرة كالموشحات والدوبيت والزجل والمواليا، وفي المخمسات والمسمطات، مما يدل على سعة إطلاعها، وتمثلها ثقافة أدبية دعمت ثقافتها الدينية وبرزت في مصنفاتها وأشعارها الكثيرة .

وكانت صاحبة خط جميل، ولذلك تعد من الخطاطات المبدعات، فقد كتبت بخط يدها أغلب مؤلفاتها الكثيرة والتي لم يصلنا منها سوى القليل.

لقد تبوأت عائشة الباعونية مكانة رفيعة في العصر المملوكي، وبذلك استحقت هذا التكريم الكبير من منظمة عالمية كاليونسكو، عام2006 م احتفالاً بمناسبة مرور 500 عام على ولادتها، وذلك بإحياء ذكرى الذين ساهموا في خدمة الثقافة والمعرفة.

وحري بمؤسساتنا الحكومية أن تبادر إلى إطلاق اسمها على بعض المراكز العلمية والثقافية، والمدارس الحكومية والكليات العلمية، وبهذا العمل نكون قد وفينا بعض حقها وكرمناها كأدبية سورية وعربية وإسلامية رائدة نبغت في عصرها، وغدت اليوم علماً بارزاً على المستوى العالمي.

وفي العصر الحديث قدمت حول أدبها رسائل الماجستير منها في جامعة القديس يوسف في بيروت.

ورسالة أخرى في جامعة اليرموك عام 1988 م بعنوان: عائشة الباعونية شاعرة، وهو رسالة ماجستير للدكتور حسن محمد الربابعة، وقد طبعتها وزارة الثقافة الأردنية، 1998م.

مؤلفاتها:

لعائشة الباعونية العديد من المصنفات في مجالي الشعر والنثر، وأبدعت فيهما بشكل كبير، لكنها أجادت في النظم أكثر من فن النثر، وإن كانت في شعرها ونثرها تتكلف فنون البديع على أسلوب عصرها، يقول عنها (أحمد حسن الزيات):

" يثير عاطفة الإعجاب في المرء أن يرى في هذا العصر المظلم إمرأة ما لباعونية تبذ الرجال في العلم والأدب، ولا يعيبها أن تكلف بالسجع، وتتكلف البديع وتُغْرَى باللفظ، وتقصر إلهامها على المدائح النبوية فإن المرء صنيع ببيئته والشعر الحق مرآة صاحبه وصورة قلبه، وقد علمنا كيف تشبث الشعراء في هذه العصور بالصناعة اللفظية، وانصرفوا إلى المعاني الدينية، فلا بدع إذا ما تخلقت هي بأخلاق عصرها، ونهجت سبيله في نثرها وشعرها" [(11)].

ورد لها مؤلفات كثيرة منها المطبوع ومنها المخطوط ومنها المفقود، **فمؤلفاتها المطبوعة هي:**

1ـــ بديعية «الفتح المبين في مدح الأمين» حيث شرحتها شرحاً حسناً.

11 ـــ الموسوعة العالمية للشعر العربي، أدباء العرب، على الشبكة العنكبوتية.

2 ــ «مولد النبي للباعونية». ويعرف باسم آخر هو (المورد الأهنى في المولد الأسنى) وهو ديوان شعر، وقد طبع هذا الكتاب في المطبعة الحنفية بدمشق سنة 1301هــ/1901م.

ومن مؤلفاتها المخطوطة:

3 ــ در الغائص في بحر المعجزات والخصائص، وهذا المخطوط يتضمن قصيدة رائية عدد أبياتها 1740 بيتاً يحتوي على صفات الخالق والرسول الكريم وغيرها مما هو محفوظ في دار الكتب المصرية.

4 ــ أرجوزة القول البديع، وهي أرجوزة لخصت فيها كتاب «القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع» للإمام الحافظ شمس الدين السخاوي المتوفى سنة 831هــ/1469م.

5 ــ ديوان عائشة الباعونية، ويسمى «فيض الفضل وجمع الشمل»، بخطها في التيمورية، بدار الكتب، وهو مؤلف من ست قصائد نبوية في مدح النبي صلى الله عليه وسلم.

6 ــ مجموع كلام السيدة عائشة الباعونية في التصوف.

7 ــ فتوح الضراعة على صاحب الشفاعة ، وفيه (100) مائة بيت في الثناء على الله تعالى وأسمائه الحسنى بخمسين بيتاً والباقي في الصلاة على رسول الله-صلى الله عليه وسلم- وعلى صحبه الكرام ووزيريه؛ أبي بكر وعمر وعن الأولياء والأحباب رضي الله عنهم.

8 ــ الزبدة في تخميس البردة.

9 ــ تشريف الفكر في نظم فوائد الذكر.

10 ــ فيض الوفا في أسماء المصطفى.

11 ــ الفتح القريب في معراج الحبيب.

12 ــ صِلاتُ السلام في فضل الصلاة والسلام.

13 ــ الإشارات الخفية في المنازل العلية، وهي أرجوزة اختصرت فيها منازل السائرين للهروي.

14 ــ «الملامح الشريفة في الآثار اللطيفة» وهو يشتمل على إنشادات وإشارات صوفية، ومعارف ذوقية.

15 ــ مدد الودود في مولد المحمود.

16 ــ المنتخب في أصول الرتب.

17 ــ فتح المجيب بمتعلقات قوله تعالى: «وإذا سألك عبادي عني فإني قريب» ويتضمن أدعية إقتداء بالرسول الكريم.

18 ــ كيفيات الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

19 ــ القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع.

20 ــ المعجزات والخصائص النبوية، منظومة من كتاب السيوطي كما يذكر (كارل بروكلمان).

21 ــ الفتح الحقي من منح التلقي، شعر يشتمل على كلمات لدنية في معان سنية، نحت بها منحى الصوفية.

المبحث الثاني: معطيات شعرها

المطلب الأول: خصائص شعرها ومميزاته

عائشة الباعونية شاعرة تمتاز بالقدرة على التعبير، والتمكن بنواصي الكلام، وتهتم بالسجع في نثرها، لكنها ذات شاعرية فياضة جياشة، تسندها قريحة وقادة، وموهبة فياضة، ويعضدها ذكاء وألمعية وطموح والتطلع إلى العلياء. وبالحقيقة أن من رأى سحر بلاغتها فكأنما رأى هاروت وماروت، ومن شعرها البديع في الغزل قولها[12] :

كأنما الخال القرط فـــي عـــنـــق   بدا لنا من محيا مـــن خـــلـــقـــا

نجم غدا بعمود الصبح مستـــتـــرا   خلف الثريا قبيل الشمس فاحترقا

إن شعر عائشة الباعونية متعدد الصنوف فمنه : الموشح والدوبيت والزجل والمواليا، ومنه التسميط والتخميس ومنه أغراض شعرية كالمدح النبوي، والحقيقة المحمدية، ومدح صحابته الأجلاء، والمطارحات الإخوانية، والحنين إلى الديار، والحنين إلى الخمرة الصوفية، والحنين إلى ديار الرسول الكريم، ومن شعرها الغزل بالجمال الأنثوي، ومن شعرها الوصف والحركة إلى الديار المقدسة، وإلى الطبيعة الثابتة كالبساتين التي فيها بهاء الله يتجلى في قدرته في نمنمتها، ولها شعر في الفخر وحساب الجمّل،كما أن لها شعراً في تخليد البنيان ،كقولها في وصف جسر الشريعة في عهد برقوق [13]:

بنى ســـلطاننا برقوق جسراً   بأمر والأنـــــام له مطيعهْ

مجازاً في الحقيقة للبرايـــا   وأمراً بالمرور على الشريعهْ

ولقد برزت عندها هذه المقدرة الشعرية والطاقة التعبيرية في مجالات مختلفة منها:

1 ــ اختيارها ما جزل من الألفاظ الرقيقة، وفخم من لطائف الكلام، وبخاصة في الأغراض الشعرية التي تحتاج إلى ارتداء ثياب الفخامة، والاكتساء بطيلسان الجزالة كمدح النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك حينما قالت [14]:

---

12 ــ زينب العاملي، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور: 239.

13 ــ المصدر السابق: 239.

14 ــ ماجد الذهبي وصلاح الخيمي، من التراث العربي - ديوان السيّدة عائشة الباعونيّة، بحث منشور في مجلة التراث العربي، وهي مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد الرابع، السنة الثانية، آذار "مارس" 1981.

حبيبي أنت من قلبي قريب وعن سرّي جمالك لا يغيب
خلعت الحسن في خلع التجلي فشاهدت الجمال ولا رقيب
وأبدت الوصال فلا صدود ولا وهم ولا شيء يريب
تنادمني وتسقيني مدامي ويحضرني لديك فلا أغيب
وتذكرني وتشهدني جمالاً تقدّس أن يكون له ضريب
فلا خوف وأنت أمان قلبي ولا سقم وأنت لي الطبيب
ولا حزن وأنت سرور سرّي ولا سؤال وأنت لي الحبيب

2 ـــ في حين تتسم ألفاظها بالدقة والرقة والفصاحة المرصعة في الوصف، سواء في وصف مكان أو انسان، فمن نظمها ما أورد لها شمس الدين ابن طولون الحنفي أبياتاً في وصف دمشق[15]:

نزه الطرف في دمشق ففيها كل ما تشتهي وما تختار
هي في الأرض جنة فتأمل كيف تجري من تحتها الأنهار
كم سما في ربوعها كل قصر أشرقت من وجوهه الأقمار
وتناغيك بينها صادحات خرست عند نطقها الأوتار
كلها روضـــة وماءٌ زلال وقصـــور مشيـــدة وديار

ونجد في وصفها للنبي صلى الله عليه وسلم، ولبعض محاسن جسده الشريف، وهي تحاول أن تكون هذه الأوصاف مما وردت في الأحاديث الصحيحة، فاقتطعت نور البدر شبيهاً له، ومما ركّزت عليه محاسن وجهه الكريم وحسن جبينه حين بدا لها من جماله الأقدس الذي فاق نورُه نورَ الشمس، بل إن الشمس أضحت كالهباء في الهواء نسبة لنور بهائه عليه الصلاة والسلام، وامتدحت قوام جسمه، واستعذبت لماه وهو ريقه الشريف، واحتشمت في غزلها، ودائماً تبدو عليها مسحة صوفية صافية وصادقة، فتقول[16]:

وحـــبـــيـــبي قـــمــــــرٌ متّـــسِـــقٌ في سناه الشمس أضحت كالهُبَي
فـــي هـــوى أقمـــار تم نصبوا حُســـنَهم أشـــراكَ صيـــدٍ للفـــتَيْ

---

15 ـــ ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب: 10/ 159.

16 ـــ عبد الله محمد عكور، بلُّ الصُّدَي بشرح يائية الباعونية سعدُ إن جئت ثنيات اللوَي، بحث منشور على الشبكة العنكبوتية.

ولمـــاء الحســـــــــن في وجنـــته رونــــــقٌ يـــربو على ورد الربَي

كـــل درٍّ وعـــقيـــقٍ دون مـــا حـــاز ذاك الثغر من وصـــفٍ وزِي

3 ــ وتتميز شعر عائشة بالمصطلحات الصوفية، ومنها تجليات الرمز الخمري، وهي التي تعبّر عن نشوة المعرفة الروحية بألفاظ العشق الجسدي، وهذا مما يعتبر من البلاغة والفصاحة بمكان، حيث يأتي الشاعر بمصطلحات في شعره يوظفها من أجل إيصال مقصوده إلى أذن السامع بأحسن أسلوب، ويقدمها إلى غيره بأبهى حلة، فيبقى شعره مناراً لمن بعده، ومن هذه الاصطلاحات التي درج عليها الشعراء الصوفية ــ ومنهم الباعونية ــ ذكر الخمرة عندهم، وأكثر ما يأتي هذا المصطلح عند تعبير الشاعر عن شيئين هما: محبة الله تعالى ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم، لكن رمز خمرة الباعونية تختلف عن خمرة شعراء الصوفية التي تعمل فيهم كما تفعل الخمرة بشاربها، لأن الباعونية متصوفة لم تعتزل الحياة، بل مارست تفاصيلها التي يمارسها الإنسان العادي، وهي بذلك تختلف عن رابعة العدوية على سبيل المثال، كما أن شعر المرأة في العرفان الصوفي قد يصوغ واقعاً فنياً مختلفاً عن شعر الرجل، فخمرة الباعونية يشع منها الصفاء، ويتحقق فيها الهناء، وذلك حينما تقول[17]:

طربت روحي بسكري بالهوى وبمن أهوى فنالت سكرتَي

يا حياة الروح يا رِيّ الظـــــما يا حبيب الله يا ساقي الحُمَيّ

4 ــ ومن مميزات شعرها تنوع أساليبها الشعرية المشوقة، حيث تُلْبس معاني شعرها ثوباً قشيباً من السهولة والوضوح، مع روائع السبك في البلاغة، فهي تبدع في استخدام التورية والجناس والالتفات وغير ذلك من ألوان الفصاحة والبيان، وتقدم تمهيداً لطيفاً لقصائدها مدبجة بالسجع الجميل، فتقول في مقدمة شرح البديعة: وبعد فهذه قصيدة صادرة عن ذات قناع، شاهد بسلامة الطباع، منقحة بحسن البيان، مبينة على أساس التقوى من الله ورضوان، سافرة عن وجوه البديع، سامية بمدح الحبيب الشفيع، مطلقة قيود تسمية الأنواع، مشرقة الطوالع في أفق الإبداع، موسومة بين القصائد النبويات، بمقتضى الإلهام الذي هو عمدة أهل الإشارات، بالفتح المبين، في مدح الأمين.

17 ــ عباس عبد الحليم عباس، إبداع اللغة في الرمز الخمري، عند شاعرة المتصوفة عائشة الباعونية، بحث منشور في مجلة نزوى الالكترونية، العدد الثاني والخمسون، بتاريخ: 18-07-2009م.

ومطلع هذه القصيدة [18]:

في حسن مطلع أقمار بذي سلم　　أصبحت في زمر العشاق كالعلم
أقول والدمــع جار جارحٌ مقلي　　والجار جار بعـــدل فيه متهم

ومنها في الجناس المركب:

يا سعد إن أبصرت عيناك كاظمة　　وجئت سلعاً فسل عن أهلها القدم

ومنها في الجناس المصحف والمطلق:

فثم أقـــمار تم طالعين على　　طويـــلع حيـــهم وانزل بحيـــهم

ومنها في الاستخدام:

واستوطنوا السر مني فهو منزلهم　　ولا أفوه بـــه يــــــوماً لغيرهم

ومنها في الالتفات:

حلوا بقلبي فيا قلبي تهن بـــهـــم　　وافرح ولا تلتفت عنهم لغيرهم

ومنها في التفريق:

قالوا: هي الغيث قلت الغيث آونة　　يهمي وغيث نداه لا زال همي

ومنها في التوجيه:

جردت حجي له من كل مفســـدة　　ولم تزل بالصفا تسعى له قدمي

ومنها في المدح في معرض الذم:

لا عيب فيهم سوى أن لا يضام لهم　　وفد ولا يبخلوا بالرفد في العـــدم

ومنها في حسن الختام:

محت مجدك والإخلاص ملتزمي　　فيه حسن امتداحي فيك مختتمي

إن ختام هذه القصيدة لم يأت في قصيدة غيرها من حسن الذوق السليم.

18 ــ زينب العاملي، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور: 239، وقد أتت المؤلفة على إيراد القصيدة بأكملها بدون شرح مع مقدمتها كاملة وذلك إظهاراً لفضل الباعونية وعلو همتها.

5 ــ ومما يضاف إلى خصائص شعرها الأسلوبية، طول بعض القصائد التي تدل على تمكن الشاعرة واقتدارها الشعري، فقصيدتها الرائية عدد أبياتها 1740 بيتاً يحتوي على صفات الخالق والرسول الكريم وغيره.

ومن كثرة ما لها من العلم والفهم والإطلاع وسرعة الجواب فيه بدون روية سألها سائل نظماً عن وطء النائمة، فقال[19]:

ما قولك يا ستنا العـــالـــمة ... في رجل دت على نـــائمة
تفتحت تحسبه بـــعـــلــــهـــا ... وهي بما لذ لــــهـــا رائمة
فاستيقظت فأبصرت غـــيره ... عضت على إصبعها نادمة
فهل لها من فتوة عنـــدكـــم ... مأجورة من ذاك أم آثـــمة

فأجابته على البديهة قائلة:

قالت لكم ستكم الـــعـــالمة ... أنا لأهل العلم كالخادمة
أنقل ما قالوا وما أخـــبـــروا ... عن التي قد نكحت نائمة
الشافعي قال لهـــا أجـــرهـــا ... ما لم تكن في نكحها عالمة
والمالكي قال أنا فـــتـــوتـــي ... مأجورة في ذاك لا آثـــمة
والحنفي قال أتى رزقـــهـــا ... في ظلمة الليل وهي حالمة
والحنبلي قال أنا فـــتـــوتـــي ... في هذه النكحة كـــالآثمة
لو لم يكن لذ لها طـــعـــمـــه ... لانتهضت من تحته قـــائمة

19 ــ زينب العاملي، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور: 239.

المطلب الثاني: تحليل ملامح من شعرها

لقد استفادت عائشة الباعونية المتصوفة من تراث العرب الشعري في كثير من النواحي، وخاصة في وصف الخمرة هذا من ناحية، ومن التراث الصوفي في خمرياتهم من ناحية أخرى، وذلك لتعبر عن (الحب الإلهي) الذي هو غاية المتصوّف ومنتهاه، فنجدها تقول [20]:

إليهـــا بهـــا فيها علـــى المدى حنيني ووجدي وافتضاحي ولهفتـــي
قبيح عليَّ الصبر عنهـــا وبيننا عهـــود نراعيهـــا بحـــفظ المودّةِ
ولهت بها حتى رمونـــي بجنّـــة وما بي جنون، بـــي غرام بجنّتـــي
غذيـــت بها في عالم الذر وانتشى على نشوتي من شـــربها طفل جملتي
أنفت بها مني وأصبحت في الهوى أغار عليهـــــــا أن تمر بفكرتـــي
سقاني حميّا الحب من قبل نشأتـــي ومن قبل وجداني طربت بنشوتـــي
دعاني هواه فاستجبـــت بجملتـــي إجابة من أفنـــى بباقـــي الهويّـــة

ففي هذا النص نجد لغة عالية الرهافة، وظفتها الشاعرة لوصف (الخمرة) والموقف منها، فحينما استخدمت (**إليها**) (**بها**) (**فيها**) للدلالة على إحاطة الخمرة وسلطتها وشمولها لعالم الشاعرة المكاني، وكذلك الزماني في قولها على (المدى) غير أن الإحاطة الحسية (زماناً ومكاناً) هي مجرد إحاطة أو سلطة خارجية، إذ تكشف كثافة اللغة الشعرية عن سلطة أو سيطرة أشد على الشاعرة داخلياً، أي عبر معجم شعوري يعتمد ألفاظاً نفسية وعاطفية شعورية مثل:

حنيني / وجدي / افتضاحي / لهفتي

الصبر / العهد / المودّة

ولهت / جِنّة / جنون / غرام / جِنّتي

انتشى / نشوتي / جملتي

أنفت / أغار

20 ــ عباس عبد الحليم عباس، إبداع اللغة في الرمز الخمري، مجلة نزوى الالكترونية، العدد الثاني والخمسون، بتاريخ: 2009-07-18م.

حمّيا الحب / نشأتي / وجداني / طربت / بجملتي

فكل هذا المعجم متوالد عن حضور الخمرة التي اتخذها الشاعرة جسراً للعبور نحو عالم من المشاعر التي ينقلنا إليها المعجم بشيء من العمق الذي يصوّر لنا شدّة التأثير ومدى تمكّن السلطة الناجمة عن اختيار لغة تحيط بالجسد والعقل والحواس بحيث تشمل الإنسان في جميع أحواله، أعني (التوازن / وعدمه).

فالاتكاء على هذا المعجم من الألفاظ، وكثافة الحضور اللغوي أغنى الشاعرة عن جوانب أخرى من الفن، فلم نعد نجد للصورة الشعرية مثلاً، ذلك التأثير أو الدور في إبداع المعنى وتصوير الأحاسيس، إذ باتت اللغة كفيلة بذلك، وكأن الشاعرة تعيد صياغة الأشياء والمفاهيم، فلدى الصوفية (تتسع الرؤية فتضيق العبارة) لكن ترى لدى الباعونية (تتسع الرؤية فتتسع العبارة) تبعاً لذلك [21].

وفي دراسة لشعر عائشة الباعونية رصد الدكتور حسن ربابعة الموقف الخمري عندها محاولاً كشف ملامح (حال السكر) فوجده ينقسم إلى ثلاثة أقسام: **(الذوق والشرب والري)** مشيراً إلى أنها تعتمد على تراث الصوفية في ذلك ، فقد جاء عند القشيري وغيره شيء من التفصيل في هذه الاصطلاحات التي تشرح (حال السكر) عندهم.

لذا فالذوق «يحصل للذائق بانكشاف الجمال له، ويحظى بشيء منه نفساً أو نفسين، وأما الشارب فينكشف له الجمال ساعة أو ساعتين، وأما المرتوي فهو الذي يتوالى الأمر به ويدام له الشرب، حتى تمتلئ مفاصله وعروقه من أنوار الله المخزونة» [22].

ولقد عبّرت عائشة الباعونية في بعض أزجالها عن مرحلة (الذوق) فقالت:

يا فقرا أفنـــوا الإحســـاس

في خمرة راقت في الكاس

ذايقها في الناس قد كاس

والريــــــان فيها سلطـــان

21 ـــ عباس عبد الحليم عباس، إبداع اللغة في الرمز الخمري، عند شاعرة المتصوفة عائشة الباعونية، مجلة نزوى الالكترونية، العدد الثاني والخمسون، بتاريخ: 18-07-2009م.

22 ـــ حسن ربابعة، عائشة الباعونية شاعرة:180.

ولعل اختيارها لهذا الشكل اللغوي الشعبي والبراعة في التركيب، وإبداع العلاقات داخل الجملة نمط من الكثافة البنائية التي تشكل بحد ذاتها دلالة مقصودة، لذلك جاء التركيب كما يلي (ذايقها في الناس) دلالة على عمومية مرحلة الذوق وعدم التميّز فيها.

أما قولها (الريان سلطان) فالدلالة واضحة على التملك والتفرد والتميز والوصول حيث لاحظنا كيف جاءت العلاقة مباشرة بين (الريان وسلطان) دون أي فواصل لغوية كتلك التي جاءت في قولها (ذايقها في الناس..).

وإذا كان (الذوق) هو المقدمة والمفتتح، فإن المرحلة التالية والدائمة هي (الري)، وفي ذلك دلالة على أن الوصول إلى مرحلة(الري) تسبقه مجاهدة ومكابدة طويلة مثلتها حال الشرب التي ستنتهي يوماً إلى (ري)، وتقول:

سقاني حميّا الحب من قبل نشأتي — ومن قبل وجداني طربت بنشوتي

هي الشمس ، إلا ما تغيب وإنها — لتطرح أهل الشُربِ في تيه غيبتي

لها البدر كأس والنجوم حبابهــا — وندمائها الأحباب أهــل المحبة

وكأس بلا كيف ، وخمر مروّق — بدن تداني حــل حــال المحبّــة

يدور بلطــف يمتلــي بعنايــة — يفوح بروح فيها روحة راحة

فاللغة وتركيباتها هنا هي التي تؤطّر التجربة الصوفية المتميزة، وتشكل له عالماً مختلفاً عن عوالم الفن الأخرى (الشعراء من غير المتصوفة) ممن يعتمدون في فنهم على الخيال والصورة الشعرية بدرجة أولى، لكن اللغة هنا ذات سلطة مطلقة في التعبير عن الحالة بدقة متناهية، فالشاعرة تجهد نفسها في إيصال فكرة (اللامدرك) في شرح حال السكر الذي لا شرح له.

فالسقيا في النص تمت من قبل النشأة **(زمن المجهول)**

والخمرة تطرح أهل الشرب في تيه الغيبة **(مكان مجهول)**

والكأس بلا كيف ويفوح بالروح **(هيئة مجهولة).**

إذن نحن أمام جهد لغوي يعمد إلى غلق عالم الخمرة وتحديداً في مرحلة (الشرب) المرحلة الوسطى ليصبح نظام السياق الخمري عندها كما يلي:

الذوق: حالة عامة تشكّل بدايات السلوك.

الشرب: حالة مستمرة تدخل السالك في مجهول الزمان والمكان والهيئة.

الري: وهي نهاية طريق السالك التي تؤدي به إلى (الحقيقة) حقيقة الامتلاء بالمحبة الإلهية والقرب الأبدي من الذات المقدّسة[23].

الخاتمة:

درسنا في هذه الصفحات البسيطة عَلَماً من أعلام الشعر العربي، وشخصية من شخصياته، رفعت لواء الشعر ردحاً من الزمن، ألا وهي الشاعرة الأدبية الأريبة عائشة الباعونية، لقد بدأ بحثي عنها بمقدمة موجزة أوضحت فيها سبب اختياري لها مع قلة المصادر، وبعد ذلك عقدت مبحثاً عن حياتها ونشأتها، ثم انتقلت إلى معطياتها الشعرية في المبحث الثاني، ودرست خصائص شعرها ومميزاته، وأضفيتُ الحديث بالتحليل عن ملامح من شعرها، ولعلي بهذا البحث ــ وإن كنتُ معترفاً بقصورها ــ أديتُ بعض الواجب علي في لفت النظر إلى هذه الشخصية الخالدة والمرموقة، وإبرازها إلى حيز الوجود وذلك لحض الدارسين والباحثين في تراث الأدب العربي.

وأهم **النتائج** التي توصلت إليها:

1 ــ أن عائشة الباعونية ليست شاعرة فقط، بل هي قارئة وأديبة وفقيهة ومتصوفة وخطاطة.

2 ــ أنها دمشقية المولد والوفاة، وأما نسبتها إلى (باعون) فتعود إلى جدها الخامس أوالسادس.

3 ــ أنها حفظت القرآن الكريم وهي في الثامنة من عمرها.

4 ــ أنها رحلت من دمشق إلى مصر، ورحلت إلى مكة والمدينة المنورة، وزارت حلب.

5 ــ أنها أجيزت بالإفتاء والتدريس في مساجد القاهرة.

6 ــ أنها بلغت في الشعر مبلغاً عظيماً حتى عدها العارفون بالأدب بين المولدين المحدثين من الشعراء والأدباء تزيد عن الخنساء بين الجاهليين.

7 ــ أن مصنفاتها أكثر من خمسة وعشرين، اثنان مطبوعان، والباقي مخطوط، وأكثره مفقود.

8 ــ أن الشاعرة كانت صوفية صافية العاطفة، تعتمد كثيراً على مخزونها الثقافي المستمد من أدب التراث.

9 ــ الكشف عن خصائص شعرها وملامح الصورة التي تجلى فيها براعتها في فن التعبير من خلال تحليلٍ لنموذج من نتاجها.

---

23 ــ عباس عبد الحليم عباس، إبداع اللغة في الرمز الخمري، عند شاعرة المتصوفة عائشة الباعونية، مجلة نزوى الالكترونية، العدد الثاني والخمسون، بتاريخ: 18-07-2009م.

المصادر والمراجع:

1 ــ أحمد بن علي بن عبد القادر العبيد المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1418هــ 1997م.

2 ــ حسن ربابعة، عائشة الباعونية شاعرة، دار الهلال، إربد،1997م.

3 ــ خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة : الخامسة عشرة 2002م.

4 ــ زينب العاملي، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، دار المعرفة، بيروت،1312هــ.

5 ــ عبد الحي بن أحمد المعروف بابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر ومحمود الرناؤوط، دار ابن كثير، الطبعة الأولى 1414 هــ 1993م.

6 ــ عمر رضا كحالة، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت (د.ت).

7 ــ ماجد الذهبي وصلاح الخيمي، من التراث العربي - ديوان السيّدة عائشة الباعونيّة، بحث منشور في مجلة التراث العربي، وهي مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد الرابع، السنة الثانية، آذار "مارس" 1981.

8 ــ محمد بن علي بن طولون الصالحي: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى 1418 هــ 1998م.

9 ــ الموسوعة العالمية للشعر العربي، أدباء العرب، على الشبكة العنكبوتية.

10 ــ عباس عبد الحليم عباس، إبداع اللغة في الرمز الخمري، عند شاعرة المتصوفة عائشة الباعونية، بحث منشور في مجلة نزوى الالكترونية، العدد الثاني والخمسون، بتاريخ: 18-07-2009م.

11 ــ عبد الله محمد عكور، بلُّ الصُّدَي بشرح يائية الباعونية سعدُ إن جئت ثنيات اللوَي، بحث منشور على الشبكة العنكبوتية.

الفهرس


عائشة الباعونية
شاعرة الشام.. وفاضلة الزمان
الدكتور محمد محمود كالو
دار المجد للنشر